

مازق الهوية بين الخطاب الديني والعولمة

في فكر طه عبد الرحمن

The problem of identity between religious discourse and globalization

in the thought of Taha Abdurrahmane

¹ ط.د. شويبي علي، جامعة وهران 2، (الجزائر) chouiniali21061987@gmail.com

² ط.د. بدة فوزية، جامعة 8 ماي 1945، قالمة، (الجزائر) beddafouzia@gmail.com

³ د. زموري العياشي جامعة 08 ماي 1945، قالمة، (الجزائر) zemmouri.layachi@univ-guelma.dz

تاريخ الاستقبال: 2019/12/20؛ تاريخ القبول: 2021/01/20؛ تاريخ النشر: 2021/06/30

ملخص: تحدف م يعتبر سؤال الهوية ايوم من بين القضايا الاساسية التي يتعرض لها الانسان المعاصر، فبات من بين المشكلات التي لايد من البحث لها عن مرجع تستند اليه، اي ان الانسان في الوقت الحاضر بحاجة الى تحديد هويته خاصة في ظل ما يعرف بالعولمة التي قضت على كل الخصوصيات و أوقعت بذلك الانسان في مازق الهوية، فللخروج من هذه الازمة (ازمة الهوية) ظهر العديد من الخطابات التي بالرغم من ان لها هدف واحد و هو إيجاد حل لهذه الازمة الا ان مقارباتها كانت تختلف من خطاب الى اخر ومن بين هذه الخطابات نجد الخطاب الديني الذي دافع على الدين واعتبره سبيل الى تحديد الهوية و بمثابة سبيل لوضع حد لازمة الهوية . لقد تبني العديد من الفلاسفة والمفكرين الخطاب الديني باعتباره مرجعية للهوية ومن بين هؤلاء نجد طه عبد الرحمن الذي اقام الهوية على اساس ديني، وذهب الى ضرورة التمييز بين الهوية الغربية والهوية الاسلامية فالأولى مبنية على اساس مادي اما الثانية تابعة من الدين الاسلامي و ذات مصدر روحي، ولتجاوز هذه المأزق لا بد من العودة الى الدين والتمسك به لان الحضارة الغربية دخلت هذه الازمة منذ ان فصلت الدين عن مجالات حياة الانسانية ومناداتها بالدينيوية التي لا يمكن ان تتحقق الا بالعلم والمادة فقدستهما على حساب الجانب الروحي للإنسان وهذا الامر يتجلى بشكل واضح في مبادئ الحداثة الغربية، فالإنسان فقد هويته عنما ابتعد عن دينه الذي يمثل لب هويته فلهذا لا يجب على الانسان المسلم ان يسير على نهج الانسان الغربي .

الكلمات المفتاحية :

الهوية، الخطاب الديني، العولمة، العلم، النزعة المادية، الهوية الاسلامية.

Abstract

Through The question of identity is one of the basic issues facing modern man. It becomes among the problems that : need a reference to rely on. In other words, today's human being needs to determine his/her identity, especially in the context of what is known as globalization that has eliminated all the peculiarities and characteristics, and thus implicated mankind in a problem of identity. To get out from this deadlock (the identity crisis), many kinds of discourses emerged; despite the fact that they all had the same goal: to find a solution to this crisis, but their approaches differed from one speech to another. Among these discourses is the religious discourse that defended religion and .considered it as a path towards identification and as a way to put an end to the crisis of identity

Many of the philosophers and thinkers adopted the religious discourse as a reference to identity. Among them is Taha Abdurrahmane, who says that identity should be established on a religious basis. He claims that there should be a distinction between Western identity and Islamic identity. The first is based on a materialistic basis whereas the second is inspired from Islam and has a spiritual source. In order to overcome this impasse, he thinks that we must return to religion and adhere to it; the Western civilization entered this crisis once religion was separated from the areas of human life and because of the appeals to secularism that can only be achieved by science and material, at the expense of the spiritual side of human beings. This is clearly seen in the principles of Western modernity. Man has lost his/her identity when s/he got away from his religion which represents the core of his/her identity. Therefore, a Muslim should not follow the same path that the Western man took.

Keywords:

Identity, religious discourse, globalization, science, materialism, Islamic identity,

ان التطور العلمي والتكنولوجي الذي شهده الانسان منذ القرن العشرين اصبح يثير العديد من التساؤلات حول وضع الانسان، ضمن هذا السيل الجارف الذي تمخضت عنه الكثير من الازمات قد انتج ما يعرف اليوم، بالعمولة التي لا تعترف باي خصوصية والغت الحواجز الثقافية فبات الانسان المعاصر يعيش في صراع ذاتي كون أن مثل هذه الأخير تبعده عن الأصل، فلم يعد الانسان بمقدوره ان يتعرف على نفسه ففقد بذلك المرجعية واصبح يعيش في دوامة السؤال "الأننا"، فعلى اي اساس يجد هويته او بتعبير اخر كيف احدد هويتي ؟ هل بالانتماء الى الوطن؟ أم بالانتماء الديني؟ فلم يعد للحدود الجغرافية اي كلمة في ظل العمولة التي اسست لإمبراطورية عالمية الغت كل الثوابت التي كانت ترتكز عليها الهوية فلم يعد للانتماء الوطني والديني والعربي والثقافي اي اهمية.

فالهوية التي اخذت تتشكل منذ القرن العشرين هي هوية رواد هذه الامبراطورية التي اصبحت تنظر نظرة احادية تذوب تحتها كل الهويات الاخرى من اجل احداث تنميط سياسي وثقافي واقتصادي واجتماعي واحد وفرضه على بقية المجتمعات الانسانية الاخرى، الا ان سؤال الهوية مثل " السمة والهاجس الدائم للشعوب الناهضة الجديدة التي لا تكتفي ان تعيش مجرد عيش في الزمان بل توجد الزمان، ولا توجد في الكينونة بل توجد الكينونة" فكانت معرفة الشعوب لذاتها ومقوماتها هي شرط في تحقيق تطورها واثبات وجودها، وبهذا فان العمولة قد اوقعت الدول التابعة في ازمة هوية، فاصبح الانسان يعيش نوع من الانفصام في هويته، واصبح يطرح عليه بشكل متسارع الالتحاق بصف العمولة خاصة وان هذه الاخيرة تحتوي على الكثير من الامور التي تتناقض والمجتمع الذي يعيش فيه الانسان مما جعله يعيش في حيرة بين ما هو مفروض عليه باعتبار ان العمولة اصبحت قدر محتوم لا يمكن التخلص منه وبين واقعه الذي يحكمه من جهة اخرى وهو الامر الذي دفع العديد من المفكرين خاصة في المجتمعات العربية باعتبار انها اكثر المجتمعات التي تواجه اليوم ازمة هوية ولقيت صعوبة كبيرة في تقبل نظام العمولة ومن بين المفكرين الذين كان لهم موقف من هذا الوضع نجد المفكر المغربي طه عبد الرحمن الذي شخص حالة الانسان المعاصر وحاول ان يجعل من الدين مرجعية للخروج من ازمة الهوية التي يعيشها هذا الانسان، لكن ما موقف طه عبد الرحمن من مسألة العمولة ؟ وكيف وظف الخطاب الديني كحل لأزمة الهوية ؟ وهل يمكن اعتبار الدين المحدد الوحيد للهوية ؟ وما مكانة الدين في ظل العمولة ؟

1. : الحداثة الغربية ومازق الهوية :

ان ظهور الحداثة في المجتمعات الغربية وما حققته من تطور على جميع المستويات شكل صدمة للمجتمعات العربية الاسلامية حيث برز موضوع الهوية على وقع صدمة الحداثة والاستعمار في القرن التاسع عشر بما افرزته هذه الصدمة من اهتزاز في الوجود والوعي، ومن اختلال في المعاني والدلالات والقيم "وما شكلته الحداثة الغربية جعل الواقع العربي يعيش في صدمة بين ما هو موجود وبين مختلف التطلعات" فالحلل الأجنبي ما هو إلا مجموعة من الحلول المستوردة جوهرها من التجربة الغربية الحديثة بكل أشكالها الفردية والشمولية العلمانية والإلحادية" يرجع طه عبد الرحمن ازمة الانسان العربي المعاصر الى الحداثة الغربية اي ان الفرد العربي قد تأثر بالحداثة الغربية وحاول تقليدها ومما جعله يبتعد عن ذاته "فأهل التقليد والإتباع استلذوا التفلسف والتفكير والعمل على طريقة غيرهم، قد اندفعوا إلى تقليد فلاسفة ومفكري الغرب واقتفوا آثارهم"

ذلك لان الحداثة الغربية انبتت على اسس تختلف عن المبادئ التي تتأسس عليها الهوية الاسلامية وتتمثل هذه المبادئ في مبدا العقلانية أو التجريدية الذي يعتبر من مقومات الحداثة الغربية إذ عده مبداً يخالف مبداً الإيمان بالرسالة ، لأن الإنسان من خلاله لا يتخذ سوى العقل كمرجعية لأحكامه، وهذا ما سبب الخلل لأن ما يقابل المسلم في حكمه إلى جانب العقل هو الوحي" فالمحدد الأساسي

للإنسان ليس العقل المجرد، وإنما الأخلاق فهي التي تميزه عن الحيوان الذي لا أخلاق له لعدم قدرته على إدراك القيم فهوية الإنسان هي أصلاً هوية أخلاقية"

كما نجد أيضاً "مبدأً الدينوية" أو العلمانية، الذي يهمل فيه الحدائثي اهتمامه بالآخرة، ويقصر كل اهتمامه بالدنيا وفي هذا يرد طه عبد الرحمن بقوله: "اهتمام الإنسان بالآخرة ليس خروجاً عن الاهتمام بالدنيا، بل اهتمامه بالآخرة هو وسيلة للرجوع إلى الدنيا و الاهتمام بها بأفضل مما يهتم الإنسان لو أنه ترك الاهتمام بالآخرة"

وبهذا نجد ان الطابع المادي الذي اتسمت به الحدائث الغربية هو الذي شغل الفرد العربي وجعله يتأثر بها وعليه فقد انساق وراءها متناسياً بذلك لب وجوهر حضارته الاسلامية التي هي مرآة عاكسة لهويته فاصبح الانسان المسلم جراً هذا يتخبط في مخلفات الحدائث الغربية التي نسب نفسه اليها واعتبرها سبيل للخروج من الوضع القائم الذي يتميز بالتخلف نحو وضع افضل لكن هذا الانقياد يبدو له عقلائي لكن هو في حقيقته يفتقد للعقلانية، وبهذا يمكن القول انه اذا كانت الحدائث الغربية قد احدثت انقلاب في القيم والدلالات وانبتت على اساس مادي براغماتي فان طه عبد الرحمن يدعو الى حدائث اسلامية تقوم على اساس مغايرة للتي قامت عليها الحدائث الغربية فاذا كانت الحدائث الغربية قد اوقعت الانسان في ازمة هوية فان الحدائث الاسلامية كفيلة بإعادة الانسان الى هويته الحققة من خلال العودة الى الدين الاسلامي والى القيم الاخلاقية التي تتجلى فيها هوية الانسان وبالتالي يجب استبدال واقع الحدائث الغربية بروح الحدائث الاسلامية وتمثل مبادئ روح الحدائث في مبدأ الرشد ومبدأ النقد ومبدأ الشمول .

مبدأ الرشد يتطلب من صاحبه الانتقال من حالة القصور إلى حالة الرشد وهذا القصور هو ما نصلح عليه بالتبعية أو الخضوع لغيرنا ، وهذه التبعية في أصلها تتخذ أشكالاً ثلاث حسب رأي طه عبد الرحمن، فمنها التبعية الاتباعية وهي أن يسلم كل قاصر مهمة القيادة والتفكير والتحكيم في زمام الأمور للغير ويجعله خليفة عنه في كل الأمور، إضافة إلى ذلك التبعية الاستنساخية والتي هي محض تقليد لا غير، أو هي مجرد نسخ ونقل، حيث يأخذ هذا القاصر صورة ذلك الفكر - وبالأخص الفكر الحدائثي الغربي الذي هو فكر جديد كما يتوهم القاصرون - بصورتها طبق الأصل عن أفكاره، ويطبّقها بحذافيرها على واقعه دون تكلف أو تصنع، أما بالنسبة للتبعية الآلية والتي تكمن في تقليد مناهج تفكير الغير دون أن يلحظ ذلك أو يشعر بأنه مقلد بحيث يصبح لا يرى إلا تلك المناهج دون أن يتكلف في تغيير محتواها حسب واقعه، وللخروج من هذه التبعية وضع طه عبد الرحمن ركنين لا بد من الاعتماد عليهما يتمثل الأول في ركن الاستقلال ويكون الاستقلال متحققاً بفعل تخلي كل إنسان راشد عن كل وصاية وبالأخص الوصاية الفكرية، وأن يتسلم هو قيادة أفكاره ويتحرر من كل وصاية أو سلطة تقيده، لأن الإنسان المعاصر لن يعثر سواء في العالم العربي أو الغربي على "معنى لوجوده ولحركته في الكون إلا إذا خرج من تاريخ الإنسان وحضارته ومدنياته النسبية، ووعي حضوره في تاريخ الخلق الحقيقي، تاريخ الكينونة" لذا فإن ما تدعو له الحدائث الغربية هو استقلال مقلد، تجعل من الآخر هو البديل عني في كل شيء خاصة في التفكير، لهذا وجب تفادي هذا الاستقلال المقلد الذي يجعلنا تحت وصاية الآخر ودحض كل وصاية سواء كانت داخلية تتمثل في التفكير من طرف رجال الدين، أو وصاية خارجية تتمثل في ان - يفكر الغرب بدلا عنا، لذا يجب ان يتجاوز الفرد العربي لفكرة الانفصال إلى الإبداع وذلك بالتطلع إلى ما يرغب أن يفكر فيه وفي ما يجب أن يفكر، بحيث يمكن تلمس الاستقلالية الفكرية والتي تجسد ذاتية الإنسان وبالأخص الفرد العربي حيث "تجعله إنسان راشد منطلق الحركة قوي الذات"، لأن هذه الاستقلالية تجعل الإنسان مستقلاً ومسؤولاً قاطعاً كل فعل تحديثي عن كل وصاية خارجية، وليس استقلالاً قاصراً يتبع خطى الآخرين.

اما ركن الابداع يقوم على ترك كل إبداع مقلد قاصدا الإبداع المبدع للأفكار والأقوال والأفعال، ولكن هذا لا يعني أن يبدع شيء جديداً على حساب التراث، وإنما يجب أن يبدع أو أن يخلق أفكاراً كانت أو أفعال إلى غير ذلك من الأشياء وفق قيم

جديدة يتدعها من عنده، أو أن يستوحىها من التراث، ولكن بشرط أن يعيد إبداعها وفق ما يقتضيه ذلك الإبداع مع حاضره لا مع حاضر غيره، كما أن الإبداع لا يكون بقطع الصلة بالتراث قطعاً كلياً وإنما يكون بتغاضيه عن ذلك الجزء منه الذي انقضى نفعه ويعيد إبداع جزئه النافع ويقطع صلته بالجزء الفاسد، لهذا وجب على كل مرید في الحداثة أن يتصدى للمغالاة في الإبداع المقلد الذي نَجده في أغلب الحالات إبداع في الحاجيات المادية، ولكن الحداثة غير هذا فهي "أن تنشئ من عندك الجديد وتولده، وتأتي ما يندهش له غيرك ويتلقاه لا بعقله فقط، بل أيضاً بوجدانه وهو يحمل إليه قيمة أو قيمة جديدة، وهذا هو الإبداع الذي هو سر الحداثة" أما المبدأ الثاني فهو مبدأ النقد الذي يقتضي ان نتقل من حالة الاعتقاد إلى حالة الانتقاد والذي يقوم على رفض كل معتقد مسلم به دون أن يثبت صحته لأن الاعتقاد هو " نوع من التسليم بالشيء من غير وجود دليل عليه " على خلاف الاعتقاد الذي يقوم على الدليل - الدليل - الشيء حتى يحصل التسليم به، ومن أجل أن يتحقق هذا المبدأ نجده يقوم على ركنين أساسيين هما: ركن التعقيل أو العقلنة، و ركن التفصيل في الركن الأول يكون التعقيل من خلال تجاوز أو رفض تلك العقلانية المقلدة التي أسدلت ستارها على الواقع العربي من جراء الهيمنة المطلقة للتطبيق الحدائى الغربي لركن التعقيل أو العقلنة المحدودة والتي تجعل كل ظواهر العالم ومؤسسات المجتمع وسلوكيات الإنسان ومورثات التاريخ كلها خاضعة لمبادئ العقلانية والجعل من سلطة هذا العقل ييسط بفعل قداسته على كل شيء، بالإضافة إلى ذلك كله جعل من الإنسان المركز الأول أو السلطة السائدة على الطبيعة وهذا هو عين العقلنة الغربية التي جعلت الحداثة هي تلك العقلانية المقدسة بعد أن كانت الطبيعة هي السائدة والمسيطرة.

كما أن التعقيل المقلد كما يصطلح عليه طه عبد الرحمن، لم يكتفي بتعقيل الأشياء على جهة استخدامها التقني بدلا من العلمي، بمعنى أصبحت فيه "زمام المبادرة بيد التقنية لا بيد العلم، إذ أصبحت هي التي تخطط له استراتيجيته وتحدد له مساره " ولكن هذا التعقيل لن يكفي من أجل الوصول إلى الحداثة لأنه تحديث من حيث التقنية لذا وجب الأخذ بهذا التعقيل في تحقيق قيم ترتقي بالإنسان وترفع منه لأن التعقيل المبدع الذي ينبغي أن يمارسه الإنسان يطلب المعارف ويضع الآلات على مقتضى القيم والإشارات المتغلغلة في الوجدان الإنساني، كما أن هذا التعقيل المبدع الذي تدعو له الحداثة الإسلامية وفق مبادئها لا يصارع الطبيعة ولا يتسلط عليها، وإنما يخاطبها، بل يوادها ويراحمها على عكس العقلانية المقلدة ولهذا يدعو طه عبد الرحمن إلى التخلي عن التعقيل الحدائى الغربي الضيق وألا نعمل عليه لأنه تعقيل مقلد وضيق، على عكس التعقيل الحدائى للتطبيق الإسلامى الذي نجده عقل موسع لا ينحصر في العقل الأداة، أما التفصيل فإنه يقتضي رفض كل تفصيل مقلد منتقلا إلى التفصيل المبدع، حيث نجد كل حدائى سواء الغربي أو الحدائى العربي غارق في التقليد من حيث التفصيل، لآخاذهم فعل الفصل في كل المجالات وعلى كل المستويات لأن التفصيل حسب طه هو "نقل الشيء من صفة التجانس إلى صفة التباين، بحيث تتحول عناصره المتشابهة إلى عناصر متباينة"، وهذه الصفة التفصيلية للحداثة نلاحظها في كل من ميادين الثقافة بين دوائر القيم النظرية والقيم العملية والقيم الرمزية هذا من جهة، وفي ميدان المعرفة بين دوائر العلم والقانون والأخلاق والفنون هذا من جهة أخرى، وكذلك التفصيل والتفريق في كل الأدوار الاجتماعية ولكن التفصيل المقلد لم يقف عند هذا الحد من التفريق فحسب، بل اشتمل كذلك الفصل بين الأخلاق والسياسة والدين والعلم وبين الدين والعقل، بالرغم من أنها تقبل الجمع بين عناصرها المفصولة إذ سهل علينا أن نجعلها حتى لو غيرنا سياقها، لهذا بدلا من الاستغراق في البحث عن التفصيل، فمثلا مفهوم السياسة وفصلها عن الدين فإذا بحثنا في ذلك الفصل فيما بينهما وعملنا على البحث في عملية الوصل بينهما (السياسة والدين)، حتما سنصل إلى مفهوم موسع ومفهوم مختلف عما هو مصطلح عليه في الاصطلاح العربي، لهذا وجب التخلي عن فكرة التفصيل والتفريق ولحق فصل الوصل والاتصال من أجل تحقيق حداثة فعلية وخالية من أفات مظلمة وظالمة.

أما المبدأ الأخير فهو مبدأ الشمول الذي يستدعى تجاوز كل فكرة محدودة والتي تطالب بها الحداثة الغربية من محدودية المجال وخصائصه وخصوصية المجتمع، حيث وجب رفض هذه الخصوصية والتي هي في الأصل فكرة عنصرية بحيث تدعو إلى فكرة التمييز بين

الصفات الحضارية والثقافية لكل مجتمع وتؤكد على الشمولية المحدودة للحدثة من خلال شمولها لمجالات معينة في مجتمعات محدودة وهذا هو عين التوسع والتعميم المقلد لأن الحدثة ليست حكرا على مجال ومجتمع محددين، وهذا ما يؤكد عليه هذا المبدأ من خلال ركنيه وهما: ركن التوسع و ركن التعميم المبدع.

ان ركن التوسع يقتضي تجاوز فكرة التوسع المقلد الذي وقعت فيه الحدثة الغربية، نتيجة التوسع المحدود في مجموعة من المجالات على حساب مجالات أخرى، لهذا فهي كلها أحداثا سطحية وشكلية حتى ولو مست جزء من هذه المجالات وبالأخص المادية منها، لأنه من جراء هذا التوسع المقلد نجد أن الحدثة قد مست في غالب الأمر فقط الآلات، متجاوزة بذلك المجال الأخلاقي وهذا ما جعلنا نعاني من التأخر في الآفات الخلقية، لهذا وجب أن نعدل عن التوسع المقلد الذي أفرزته الحدثة الغربية ونبدأ التحديث أخذين من الأخلاق أولى المجالات ثم الأفكار، ثم تحديث المؤسسات ومن ثم يليها تحديث الآلات، لأن أفعال التحديث لا تنحصر في مجال أو مجالات بعينها، بل تنفذ إلى كل مجالات الحياة ومستويات السلوك، فتؤثر في مجالات الفكر والعلم والدين والأخلاق كما تؤثر في مجالات القانون والسياسة والاقتصاد، لذا تظل الحدثة الغربية مجرد "إمكان واحد لهذه الحدثة، لأن لها - الحدثة - مظاهر تحققية متعددة، وليس الخلق الحدائي الغربي إلا واحدا منها" وفي ركن التعميم يجب تجاوز فكرة التعميم المقلد نحو التعميم المبدع، والذي يرفض فكرة التعميم المحدود لفكرة الحدثة الغرب الذي نظر الى هي الحدثة على انها واحدة حبسية المجتمع الذي نشأت فيه، وفي هذا الركن يرفض طه عبد الرحمن فكرة التعميم المحدود وتجاوز الفروق التاريخية والحضارية بين الطرفين ومن ثم جعل الفعل الحدائي شامل ومعمم على كل المجتمعات، لأن الحدثة ليست لها قانون واحد في التطبيق، فإذا أمعنا النظر في التعميم المقلد للتطبيق الحدائي الغربي حتما سنجد يدعو إلى تجسيد فكرة الفردانية والتي هي في الأصل أيديولوجية فكرية عالمية تدعو إلى استبدال رتبة الإنسان برتبة الفرد حيث يصبح بعد ذلك بدل تحقيق صفات الكمال والخير، نجد أن هناك صفات الأنانية تترسخ وبالتالي سنجد أن الفرد هو مركز العالم، وهذا مجرد تقديس ظالم ومظلم وفيه نوع من المبالغة والزيغ، لأنه من خلال الدعوة على التأكيد للفردانية سنجد في المقابل تقديس أعمى لا أساس له من الصحة وهذا يدفع بالحدثة إلى الانحلال والزوال على عكس روح الحدثة التي نجدتها ترفض هذه القدسية وتمحوها.

II مفهوم العولمة ومازق الهوية :

لقد بحث العديد من المفكرين في ماهية العولمة فلا يمكن التعامل معها الا ن خلال تحديد ماهيتها، حيث ذهب محمد عابد الجابري الى تعريف العولمة بانها : "تنازل الدولة الوطنية أو حملها على التنازل، عن حقوق لها لفائدة" العالم"، أعني المتحكمين فيه، يجعل عدم قبول لفظة "الخصوصية" غير مبرر ولا مفهوم ويعرفها ايضا طه عبد الرحمن بانها "تعقيل العالم بما يجعله يتحول الى مجال واحد من العلاقات بين المجتمعات و الافراد عن طريق تحقيق سيطرات ثلاث: سيطرة الاقتصاد في حقل التنمية، وسيطرة التقنية في حقل العلم و سيطرة الشبكة في حقل الاتصال"، فالعولمة عنده ظاهرة تجسد رغبة الانسان في فرض سيطرته على الوجود و توحيد العلاقات الانسانية في كافة المجالات من اجل تكوين مجتمع عالمي واحد .

وبهذا فان العولمة في نظر طه عبد الرحمن تتجلى ي ثلاث انواع من السيطرة اولها سيطرة الاقتصاد في مجال التنمية من خلال الاعتماد على النظام الرأسمالي كنظام موجه للاقتصاد يتماشى مع طبيعة الفرد يستطيع في ظله بلوغ اهدافه و تحقيق رغباته حيث لا تتعارض فيه مصلحة الرد مع مصلحة الجماعة فكل ربح يحققه الفرد ينعكس ايجابا على المجتمع وكلما "تزايد غنى الاغنياء يلغي على التدرج فقر الفقراء لما ينطوي عليه هذا التزايد من اسباب الاستثمار والتشغيل" لكن هو في حقيقة الامر يزيد في ثروة المستفيد، وخدمة للصالح العام ظهرت شركات استثمارية ذات طابع عالمي اصبحت لها سلطة تمكنها من الاستثمار في كل بلدان العالم ومن ثمة تكون

العلاقة التي تجمعها مع هذه البلدان يحكمها مبدأ المنفعة والمصلحة المادية وبالتالي الاقتصاد في ظل العمولة يحكمه التنافس وتحقيق الربح بكل الوسائل حتى وإن كانت تتعارض مع القانون والأخلاق وبناءً على هذا فإنه "لا مكان في العلاقات الكونية الناتجة عن التعقيل الاقتصادي العمولي للاعتبارات المعنوية" ولهذا نجد طه عبد الرحمن يدعو إلى استبدال مبدأ سيطرة الاقتصاد في مجال التنمية بمبدأ التزكية الذي يهتم بتنمية إنسانية الإنسان على الصعيدين المادي والمعنوي في جو أخلاقي هدفه تحقيق صلاح الإنسان بعيداً عن المنافع الخاصة التي تركزها العمولة، إن مبدأ التزكية التي يدعو إليه طه عبد الرحمن يعمل على تنمية الموارد من جهة وتنمية الأخلاق من جهة أخرى على عكس العمولة التي تهتم بالجانب المادي وتحمل الجانب الأخلاقي فلا بد من الجمع بين الأخلاق والتنمية من أجل تحقيق مجتمع سوي لا يقصد الاقتصاد وإنما يهتم بصلاح الإنسان.

أما النوع الثاني من السيطرة المتمثل في سيطرة التقنية في مجال العلم فإن طه عبد الرحمن يرى بأن تطبيق ما توصل إليه العلم في الجانب النظر يقدر أنتج لنا ما يعرف اليوم بالتقنية التي قلبت دورها العلاقة بينها وبين العلم فبعدما كان العلم هو الذي ينتج التقنية ويوجهها أصبحت التقنية هي التي تتحكم في العلم وترسم مساره بدقة ومن ثمة فرضت التقنية سيطرتها على العلم فأصبح خادماً مطيعاً لها وهذا انعكس سلباً على العلاقات الكونية التي تجمع بين البشر التي أصبحت تخضع للتجريب والتحسيس فهي علاقات بين إجراءات تحكمها الآلة وبالتالي تقضي على المقاصد الأخلاقية التي تتميز بها الأعمال التي تراعي مقتضى التحكم ومقتضى الحكمة على عكس التقنية التي يسودها طابع التحكم وتشبؤ العلاقات البشرية ومن ثم تكون أخلاقهم القائلين عليها "أخلاق الواقعيين في تقديس للعلم والتقنية أشبه بتقديس العلم الإلهي الذي لا يحد"

فأما النوع الثالث من السيطرة فيتمثل في سيطرة الشبكة في مجال الاتصال حيث أصبح التواصل في العالم يقوم على شبكة الانترنت المرتبطة بالتقنية فأخرجت الإنسان من النطاق الضيق والمجال المحدود نحو الكونية أين أصبحت المعلومات تتناقل بصورة سريعة و بشكل مذهل والاعتماد على هذا النوع من الاتصال أدى بالإنسان إلى فقدان أخلاقيات التواصل حيث يقول طه عبد الرحمن "أهل العمولة في علاقاتهم الاتصالية يشتغلون بتناقل المعلومات ولا يباليون بتجاوب الذوات، فأخلاقهم أخلاق الواقعيين في تقديس المعلومات بما يشبه تقديس الكلام الإلهي" بالرغم من المبادئ التي تقوم عليها العمولة إلا أن طه عبد الرحمن يدعو إلى عدم التجسس والخوف من العمولة لأنها ليست ظاهرة حضارية جديدة أفرزتها الحداثة بل هي كانت موجودة في كل الحضارات عبر التاريخ بل كانت محرمة للتاريخ و صناعة له من خلال اتخاذها "أشكالاً متعددة: فقد يطغى فيها العامل العقدي أو العامل الثقافي أو العامل التجاري أو العامل السياسي أو العامل الاقتصادي أو العامل الإعلامي، فيستتبع العوامل الباقية أو تزودج فيها هذه العوامل بعضها ببعض" والعامل الذي ميز الحضارة المعاصرة وجعلها تدخل في العمولة هو الجانب العلمي والتكنولوجي والحرية المفرطة والتنافس من أجل تحقيق الربح و الانانية الناتجة عن حب المصلحة الذاتية والاهتمام بالجانب المادي بدلاً من الجانب المعنوي فالعمولة أصبحت قدر محتوم على شعوب العالم عامة والمجتمع الإسلامي خاصة، ومع ذلك فإن العمولة لا يمكنها أن تحول الإنسان إلى آلة ذلك لأن الإنسان أياً يبقى له سلطان على التعولم "لأنه يقدر على أن يأتي بقيمة نافعة تواجه القيم الضارة التي قد يفرزها هذا التعولم" والعمولة أيضاً تحمل في ذاتها أسباب فنائها لأن "التعولم قد يتعثر في الإمساك بزمام أمره، فتقلب عليه خططه ومقاصده، لأن الأصل في التعولم فقد الأمن في صنعه" فمادام لا يمكن تجنب التعولم خاصة بعد أن اندمج الإنسان فيه من حيث لا يدري وبعد أن استفاق على أثر أزمة تكاد تعصف بهوية فكان لا سبيل للتصدي للعمولة وإعادة الهوية للإنسان إلا من خلال العودة إلى الدين الإسلامي، لأن الإسلام هو وحده القادر على قهر العمولة وضبط مسارها التعقيلي بالأخلاق الإسلامية وهنا تبرز فعالية الخطاب الديني الإسلامي كموجه للفرد المسلم في العصر التقني والحامل لهوية هذا الفرد وهنا نتساءل كيف يتصدى الخطاب الديني للعمولة؟ وكيف يساهم في الحفاظ على هوية المسلم في ظل هذا التعولم؟

يتصدى الخطاب الديني للعولمة من خلال درء آفاتهما غير الاخلاقية الناتجة عنها لان العولمة انتجت قيم ارادت ان تجعل منها دستور اخلاقي يعمل به العالم بأكمله اي خلق نظام اخلاقي واحد تندرج تحته كل العلاقات الاجتماعية، لكن هذا النظام اخلاقي لا يتماشى مع انسانية الانسان مدام يمجّد المادة على حساب الجانب الروحي والمادي وهو الامر الذي جعل طه عبد الرحمن يستعين او يوظف الدين الاسلامي من اجل بناء نظام اخلاقي يتماشى وروح العولمة حيث تتأسس هذه الروح على جملة من المبادئ منها مبدأ ابتغاء الفضل من اجل درء آفات المظهر الاقتصادي ومعناه ان "التنمية الصالحة لا تكون الا بتكامل المقوم الاقتصادي مع المقومات الاخرى للتنمية، مع دوام اتصاله بالأفق الروحي ومن خلال هذا يتمكن الدين من تجاوز الاهتمام بالمنافع المادية للتنمية والاتجاه نحو مبدأ التزكية الذي يجعل التجارة والاعمال الاقتصادية تستند على الاخلاق لان الغاية من ذلك هي ابتغاء الفضل والمقصود منه تحقيق الفضيلة سواء كانت مادية او معنوية استنادا الى قوله تعالى ﴿ ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ وبهذا فان التنمية لا تكون نافعة و مشروعة الا اذا سعت الى تحقيق مقاصد خلقية وروحية.

اما في مبدأ الاعتبار لدرء آفات التقنية في مجال العلم وفي هذه الحالة يذهب طه عبد الرحمن الى القول بان " العلم النافع لا يكون الا بالنظر في حكمة الشيء قبل سببه وفي مآله قبل حاله " فاذا ارتبط العلم بالحكمة كانت نتائجه مفيدة واخلاقية وصالحة اما اذا ارتبط بالجانب الاجرائي فانه يكون مضر وذو نتائج وخيمة وبالتالي فالعلم يكون اعتباري اذا كان هناك توافق بين السبب والحكمة التي ينتهي اليها ومن ثمة يمكن الأخذ به اما اذا لم يكن هناك توافق فلا يجب الاعتماد عليه لأنه يتناقض مع القيم والاخلاق وبالتالي لا يتحول العلم الى " مجرد جملة امكانيات تقنية قد تنفع او تضر كما هو الشأن في النظر الاجرائي لكي تصبح امكانيات عملية تنفع ولا ضرر" كما انه يجب على الانسان الاعتباري الوقوف على مال الفعل لا على حاله لأنه يتم تقييم العلم على اساس المال لا على اساس الحال فاذا كانت مآلاته اخلاقية و نافعة يكون من الصواب الاعتماد عليه وبالتالي لا يجب ان نندفع خلف التطبيقات دون الاستشراف بنتائجها .

وفي الاخير نجد مبدأ التعارف لدرء آفات الشبكة في مجال الاتصال حيث يرتقي هذا المبدأ بفعل الدين بالمعلومات من اعتبارها مجرد منتوجات شبكية الى مرتبة المعرفات التي هي نتيجة اخلاقية وبذلك نصل الى ان " التواصل السليم لا يكون الا بكلام طيب بين متكلمين بعضهم اكرم من بعض " ان التعارف عند طه عبد الرحمن يقوم بمعنى يختلف عن معنى الاتصال فالتعارف يعود في اصله الى المعروف ومعناه الخير وهو ما نجد في قوله تعالى ﴿ يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر واثنى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ وبالتالي اقامة العلاقات الانسانية على اساس من التسامح والتعاون والاحترام، اما الاتصال فان يعتمد على الحوار في العلاقات الانسانية بالاعتماد على وسائل الاتصال البعيدة عن كل قيمة خلقية .

وعليه نجد ان طه عبد الرحمن يحمل المسلمين مسؤولية كبيرة لان لهم دين كفيل بالتصدي لكل المخاطر التي جاءت بها العولمة ومن ثمة حماية الانسانية والمحافظة على انسانيتها داخل هذا الفضاء المتعولم وذلك بالعودة الى الاخلاق الاسلامية التي يمكن من خلالها التأسيس لروح حداثة جديدة .

ثالثا: التراث و الهوية :

يعرف طه عبد الرحمن التراث بانه: " جملة المضامين والوسائل الخطابية والسلوكية التي تحدد الوجود الانتاجي للمسلم العربي في اخذه بمجموعة مخصوصة من القيم القومية والانسانية، حية كانت ام ميتة ، والتراث عنده يشتمل على القرآن والسنة وكذلك اجتهادات المسلمين وهذه العناصر الثلاث للتراث تشكل مجتمعة هوية الفرد العربي، فلا هوية بلا تراث فهي تنمو في ظل التراث وتتطور بناءا عليه ان أزمة الهوية التي اخذت في الظهور منذ القرن التاسع عشر مردها الى الابتعاد والانفصال عن التراث بحجة ان الحضارة الاوربية تطورت من خلال انفصالها عن تراثها لكن هذا غير صحيح فالغرب عاد الى تراثه اليوناني ولم ينفصل عنه، فدعوة المسلمين الى الانفصال عن تراثهم

اوقعهم في مازق الهوية ذلك لأنه "يمده بالهوية فهذا الاتصال يوفر للفرد البعد الثقافي الذي يجعله يحدد ذاته، مدركا تميزه عن باقي افراد الانسانية، فالتراث وسيلة من وسائل تثبيت الهوية "

وهذه الفكرة نجد مثلتها عند مالك بن نبي الذي اعتبر التراث احد مقومات التي تقوم عليها هوية الفرد وكذلك ارجع ازمة الهوية الى المثقفين الذين كانوا يسعون الى النهوض بالمجتمع العربي ففقدوا اثر هذا السعي انفسهم وهويتهم حيث يقول: "هنالك الكثير بين المثقفين المسلمين الذين يفتنون بالأشياء الجديدة، وبالتالي يسحرون بمنطق الفعالية، ولا يميزون بين حدود توافقها مع مهام مجتمع يريد ان ينهض دون ان يفقد هويته" وعليه فان العديد من المثقفين تأثروا بالحدائث الغربية وبتقدم الغرب فاتبعوا سبلهم دون اي يتنبهوا الى ان المجتمع الاسلامي يختلف عن المجتمع الغربي فكانت النتيجة الولوج في ازمة هوية.

يرى طه عبد الرحمن ان التراث هو اهم عامل محدد للهوية فاذا اراد الانسان العربي ان يتعرف على ذاته فيجب عليه العودة الى تراثه وهو ما يؤكد عليه بقوله " فمادام المسلم العربي يحمل في صدره هم الهوية او هم الذات فلا بد من ان يرجع الى تراثه، طالبا فيه ما يقيم او يقوي به بنية هذه الهوية ويذهب ايضا مُجَدِّد عمارة في كتابه مخاطر العمولة على الهوية الثقافية الى القول بان الهوية تعبر عن حقيقة الفرد العربي المسلم وتفصح عن وجوده وانتمائه فلا يمكن ان نعزل الفرد عن هويته ولا يمكن ان نصنع الفرد خارج عن هويته فهي(الهوية) " كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميز بها عن غيره وتتجدد فاعليتها، ويتجلى وجهها كلما ازبلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب، دون ان تخلي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات " وبالتالي فان هوية الفرد العربي عند مُجَدِّد عمارة هي الاسلام الذي ينتسب اليه المسلم ومنه كون ثقافته وعاداته وتقاليده وكل تراثه الذي يميزه عن غيره.

ان تساؤل العرب عن سبب تخلفهم وتقدم الغرب عنهم قادهم الى النظر الى التراث على انه عائق امام تطورهم فمنهم من ذهب الى ضرورة الانفصال عنه ومنهم من قال بتجديده فوقع كلا الطرفين في التقليد ولم يتمكن اي طرف من تحقيق هذا الهدف بل هذا حاد بهم وجعلهم يخرجون عن الامر المطلوب، ويرجع طه عبد الرحمن انزلاقات الهوية الى القراءات الحدائثية للتراث التي انتهجت نَحج الحدائث الغربية في المبادئ والاليات، وايضا للقراءات التجزيئية للتراث التي اتسم بها فكر مُجَدِّد عابد الجابري من خلال تقسيم التراث الى اجزاء ووحدات، فطه عبد الرحمن بالرغم من انه يدعو الى التجديد الا انه لا يدعو الى الانفصال عن التراث وذلك لا يكون الا من خلال مرحلتين الاولى هي نقد النظر التجزيئي وفي هذه المرحلة يقوم طه عبد بنقد الكيفيات التي قرا بها المفكرين الاسلاميين التراث فتوصل الى انهم اهملوا العديد من الجوانب حيث ان نظرهم اقتصر على المضامين التي هي عبارة عن مجموعة من العناصر الخطابية المركبة دلاليا واهملوا الاهتمام بالوسائل التي تعد اكثر اهمية من المضامين لان تحديد الوسائل بدقة يقود الى انتاج معارف دقيقة وهو ما اوقعهم في ما يسميه طه عبد الرحمن بالقصور في فقه الاليات حيث يقول "فاذا كانت الوسيلة هي طريق وجود المضمون، او قل هي سببه بالمعنى الاعم، فلكي يحصل المرء تمام العلم بالمضمون، او باصطلاحنا التحقق منه، فلا بد له من تمام العلم بالوسيلة او باصطلاحنا التمكن منه، فيجب اذن تقديمه على غيره والا اتسم المضمون المحصل بالضحالة او بالعطالة"

من بين ايضا الاخطاء التي وقع فيها المجددون اعتمادهم على وسائل منقولة وتطبيقها على النص التراثي الاسلامي دون نظر وتمحيص اي ان هذه الوسائل المنقولة هي في الاساس ليست اصيلة وانما هي مناهج جاءوا بها من الحضارة الغربية ومع ذلك فان طه عبد الرحمن لا يرفض فكرة استعارة الاليات ولكن يرفض الاعتماد عليها كما هي ويضع لهذا شروط اولها التمكن من اسباب هذه الاليات في مصادرها من خلال نقدها وتبيان امكانية الاعتماد عليها وقدرتها التحليلية من اجل الوصول الى معارف دقيقة وثانيها هو ضبط طرق تنزيل هذه الاسباب على النص التراثي اطلاقا من الكشف عن العلاقة الموجودة بين هذه الوسيلة والمضمون الذي سيقوم بدراسته مع مراجعة مقتضيات هذا الانزال في كل طور من الاطوار وفي الاخير يقوم بتفحص النتائج من حيث تطابقها مع الوسائل المستخدمة الا ان الاعتماد على مثل هذه الاليات دفع طه عبد الرحمن الى القول " مع العلم ان الاسباب المنهجية قد تصح، لكنها تظل غير معتبرة، لكونها

لا تتمر الا القليل من النتائج" اما في ما يخص التلويح بالعقلانية فيذهب طه عبد الرحمن الى القول ان الحدائون يدعون العقلانية و انهم عقلانيون لكنهم في الواقع يجهلون العقلانية و يتوهمونها فقط و ذلك اما " لان اصحابها لا قدرة لهم على تبين الحدود بين ما هو عقلاي وبين ما هو غير عقلاي لقلة زادهم من اسباب المنطق، واما لانهم يحملون على العقلانية افكارا واحكاما طواها الزمان، ولا عمل بها الا في عقولهم " اما الدعوة الى التجزيئية فإنها كانت تدور حوال المضامين حيث يقومون بتقسيم التراث الاسلامي الى اقسام متباينة يتم خلالها الاحتفاظ بالتي هي اكثر فائدة وذات منهجية فعالة وما عدا ذلك يتم حذفه حيث يقول "ولما كانت هذه الابحاث تنتهي كلها الى تقسيم التراث اقساما تقوم بالمفاضلة بينها فقد جعلنا لهذه الصفة الجامعة بينها اسما خاصا هو النظرة التجزيئية والتفاضلية للتراث. " اما المرحلة الثانية عند طه عبد الرحمن فتتمثل في النظر التكاملية الذي يعد بمثابة انقلاب على المرحلة الاولى المتمثلة في النظرة التجزيئية لأنه يستند على مبادئ وطرق تختلف عن المبادئ التي انبنت عليها النظرة التجزيئية فاذا كانت المرحلة الاولى تعطي الاهمية للمضامين على حساب الوسائل فان المرحلة الثانية تقلب هذه الاهمية وتعطي الاولوية للأليات، واستبدل المناهج المنقولة بمناهج مأصولة مأخوذة من التراث، واذا كانت ايضا النظرة التجزيئية تقوم على العقلانية المجردة فان النظرة التكاملية تقوم على العقلانية العملية اي انه لا فائدة من دراسة التراث دون العمل به حيث يقول طه عبد الرحمن " فأبينا الا التمسك بهذه المعايير العملية، حتى نبين كيف ان الاعتبار العملي يعين على فهم وفتح افاق المضامين التراثية "، كما ان التكامل عند طه عبد الرحمن يقوم على الجمع بين اجزاء التراث والغاء التفاضلية بين اقسامه بحيث يصبح بعضها يكمل البعض الاخر وبالتالي من خلال هذه النظرة التكاملية نصل الى تجديد التراث واعطاء نظرة جديدة له.

IV- الخلاصة:

من خلال ما تقدم نعتبر أن طه عبد الرحمن حاول أن يقدم من خلال مشروعه تأسيس فلسفة إسلامية عربية تحقق الكونية العالمية، وتحرر الإنسان المعاصر من أزمة الحدائة والعوالة، ويكون بذلك رفض مقولة " الأمر الواقع" وقد دعى في الوقت نفسه الى الرجوع الى الينابيع الحقيقية للدين الإسلامي، وأنه يمكن ترسيم معالم فلسفة إسلامية في مواجهة الحضارة الغربية المبنية على القوة والغطرسة في جميع المجالات سواء كانت سياسية أو إقتصادية وحتى ثقافية، وأكد في الوقت نفسه على الجق في الاختلاف الفلسفي، ودعى الى الحوار، وهو من كل هذا يؤكد على روح الحدائة الحقيقة لا الإمثال لمظاهرها، وبالتالي يكون مشروعه الفلسفي هادفاً الى بناء فكر اسلامي متين قادر على التصدي للتحديات الفكرية التي تواجهه، فالتجربة الصوفية التي تعتمد على العقل المؤيد فهو الهدف الأسمى الذي يصبو اليه، فقد قدم من خلال مشروع فلسفة ذات طابع علمي وعملي ويكون بذلك فتح باب التجديد في الفكر الديني وإنتاجيته.

- الإحالات والمراجع:

- أحمد مختار عمر (2008)، معجم الصواب اللغوي دليل المتقف العربي. (المجلد الأول، ط1)، القاهرة: عالم الكتب للنشر والتوزيع.
- بيار أنصار. ترجمة: نخلة فريفر(1992)، العلوم الاجتماعية المعاصرة. المركز الثقافي العربي. المغرب: الدار البيضاء.
- بيار بورديو وجان، كلود باسرون. ترجمة: ماهر تريمش(2007)، إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- بيير بورديو، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي(2007)، الرمز والسلطة. (ط3). المغرب: دار توبقال للنشر،
- جان فرانسوا دورتيه. ترجمة: جورج كتورة(2009)، معجم العلوم الإنسانية. بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- جليلة المليلح الواكدي، مفهوم الهوية، مساراته النظرية و التاريخية في الفلسفة، في الانثروبولوجيا وفي علم الاجتماع، مركز النشر الجامعي، تونس، 2010، ص 4 .
- عبد الحميد أحمد ابو سليمان، أزمة العقل المسلم، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط2003، ص1، ص29.
- طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، منشورات الزمن، دار الهدى للطباعة والنشر، المغرب، ط1، 2000، ص 87.
- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص 106
- طه عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، ط 1، 2013، ص ص 98، 99 .

- خالد حاجي ، من مضائق الحدائنة إلى فضاء الإبداع الإسلامي العربي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط1، 2005 ، ص 41.
- طه عبد الرحمن ، روح الحدائنة المدخل الى تأسيس الحدائنة الاسلامية ، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء ،ط1، 2006 ، ص 26.(Alain Rey 2003) le , France. ouvrages édités par le dictionnaire le robert: robert aujourd'hui. paris